قراءة

في كتاب

الصحابي الشاعر عبدالله بن الزبعرى، شاعر مكة وابن سيدها حياته وشعره

تأليف: الأستاذ محمد علي كاتبي

دار القلم دمشق ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دراسة بقلم:

د. عبدالباسط بدر

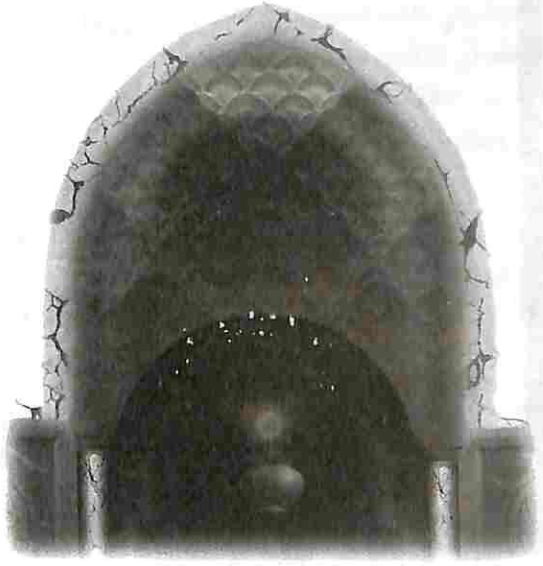

أصدرت دار القلم بدمشق كتاباً عن الصاحبي الجليل الشاعر:

(عبدالله بن الزبعري) المكي القرشي السهمي، بقلم الباحث الأستاذ محمد علي كاتبي. افتتح الباحث الكتاب بمقدمة تحدث فيها عن دراسته لحياة هذا الشاعر، وما عاناه خلال جمع المادة لندرة المراجع والمصار التي كتبت عنه.

كما تحدث عن سبب اختيار تلك الشخصية وعكوفه عن دراستها.

■■■

جاءت بعد المقدمة الدراسة في قسمين كبيرين: القسم الأول لحياة الشاعر، والثاني لدراسة شعره.

تحدث الباحث في القسم الأول عن مكة؛ بيئة الشاعر، من الناحية التاريخية والجغرافية والاجتماعية والدينية، ثم تحدث عن قبيلة الشاعر؛ (بني سلم) ومكانتهم في الجاهلية والإسلام، ومنزلتهم لدى قبيلتهم (قريش) وعلاقتهم ببني عمومتهم.

ثم تحدث عن شخصية الشاعر (عبدالله بن الزبعري) فذكر أن الزّبعري معناه: الضخم، الغليظ الكثير شعر الوجه... إلخ، وحدد تاريخ ميلاده بعشر سنين قبل عام الفيل، ووفاته بحدود سنة ١٥ هجرية متابعاً الزركلي في ذلك، واستخلص في الفصل الثاني بعض صفات الشاعر الخَلْقية والخُلقية من خلال شعره، فابن الزبعري رغم نحافته ودقة عظمه قوي بطل يردي الشجعان ويفلّ عزائمهم، حيث يقول:

إني على مـــا فيَّ من تخـــــدد
ودقـــــة في عظم ســـــاقي ويدي
أروي على ذي الكعن الضفندد

واستخلص أنه كان أسمر اللون يجيد الكتابة والقراءة، على ندرة من كان يُعنى بذلك، (فهو ابن مكة ذات البيئة التجارية المترفة التي يعيش شبابها اللهو والطيش آنذاك، فضلا عن كثير من المزايا والخلايا...).

ثم تحدث عن حياة الشاعر في الجاهلية والإسلام.. فابن الزبعري قبل الإسلام إنسان قبليّ يعيش حياة القبيلة والعنجهية، شارك في حرب الفجار، وكرس معظم شعره لمدح قبيلته والفخر بها، وعندما جاء الإسلام استقبله الشاعر باستغراب وجفاء، واعتبره هادماً لتراث

آبائه وأجداده..

لنتـــــرك أصنامـــاً بمكة عكفـــاً
مـــواريث مـــوروث كـــريم لوارث

وما لبث أن استفحلت عداوته للإسلام وأهله فحاربهما عشرين عاماً بسنانه ولسانه.. ونازل شعراء الدعوة الإسلامية عقب كل مواجهة بين والمشركين حتي إذا كان فتح مكة هرب إلى نجران، فهجاه حسان بن ثابت وعيره بفراره:

لا تعـــدمن رجـــلاً أحلّك بغـــضه
نجـــران من عـــيش أحـــذ لئـــيم

ثم شرح الله صدر ابن الزبعري للإسلام فعاد إلى رسول الله ﷺ، ووضع يده في يده، مبايعاً مسلماً، ففرح الرسول ﷺ بإسلامه وكساه حلة، ثم راح ابن الزبعري يسكب بين يدي رسول الله أحر وأروع القصائد الاعتذارية عما سلف منه من عداء وعناد وصلف، وحسن إسلامه، وشهد ما بعد الفتح من مشاهد، ومازال جندياً مخلصاً للإسلام والمسلمين حتى لقي ربه رضي الله عنه.

وفي القسم الثاني من الكتاب تحدث الأستاذ الباحث عن شعر ابن الزبعري في أربعة فصول اشتمل كل فصل على مبحثين، الأول تحدث فيه عن مكة والشعر المكي وقيمته الفنية، ومستواه وسبب قلته، ثم تحدث عن شعر ابن الزبعري خاصة وضياعه، والجهود التي بُذلت لجمعه، ذلك أن القدامى لم يعنوا بجمع ديوانه، وفي العصر الحديث قامت محاولات جديدة كان معظمها قاصرا، حتي كللتها جهود الدكتور (يحيى الجبوري) فكانت أسدّها وأتّمها، وقد أضاف الباحث إليها بعض الأبيات التي وجدها في بحثه الطويل في المراجع والمصادر.

قسم الباحث موضوعات شعر ابن الزبعري إلى قسمين كبيرين: (النقائض) التي شجرت بين ابن الزبعري وأقرانه من شعراء الدعوة الإسلامية، وعلى رأسهم حسان بن ثابت وأُبيّ بن كعب وعبدالله بن رواحة، وقد استغرق هذا المبحث مساحة كبيرة من البحث.

و(الاعتذاريات): وهي القصائد التي اعتذر فيها إلى النبي ﷺ عما بدر منه تجاه الدعوة من كيد وصد وحرب وعدوان، وشعر الإعتذار هذا ـ كما يقول الأستاذ الكاتبي ـ حوى أحر نفحات الأسى والأسف والندامة يسكبها الشاعر بين يدي رسول الله ﷺ، ويسكب معها عبارات التوبة والإيمان الصادق والعزم على الجهاد ليمحو بقادم الحسنات ما سلف من السيئات، يقول:

يـا رســـول المليك إن لســـاني
راتق مـــا فـــتـــقت إذ أنا بـور
إذ أبـاري الشـــيطـان في سـنن الغـيّ
ومـن مـــال مـــيله مـــذبـور
آمـــن الـــلـحـم والـعـظـام لـربـي
ثم قـلـبـي الشـــهـــيـــد أنـت النـذير
إنـني عـنك زاجـــر ثـم حـــيّـــاً
مـن لـؤي وكـلـهـم مـــغـــرور
أذهـب الله ضـلـة الجـــــهـل عـنـا
وأتـانـا الـرخـــاء والمـيـســـور

ويستنتج الباحث من أقوال مترجميه القدماء أن اعتذارياته كثيرة، كقول الإمام القرطبي رحمه الله: (كان شاعراً مجيداً، وله في مدح النبي ﷺ أشعار كثيرة ينسخ بها ما قد مضى من كفره)، ويتساءل بحرقة وأسى عن مصير الاعتذاريات التي لم تصلنا. ثم دمج الباحث بقية الأغراض الشعرية التي وجدها في شعر ابن الزبعري تحت عنوان (موضوعات شتى) كالمديح والهجاء والرثاء والفخر والحكمة والوصف.... إلخ.

بعدها تحدث عن شعر ابن الزبعري من حيث الشكل والمضمون، فتحدث من حيث المضمون عن معاني الشاعر الحضرية والبدوية، ثم تحدث عن بناء القصيدة فتكلم عن اللغة والأسلوب ملاحظاً اختلاف الأساليب لديه وتراوحها بين الإنشائية والخبرية بأنوعهما. وتحدث عن الخيال، فخلص إلى القول: بأن السرد الوصفي أقرب منه إلى التصوير الفني، وانتهى إلى أقوال الأئمة والعلماء في الشاعر وشعره.

ثم أثبت في نهاية الكتاب ما استطاع الظفر به من بقايا شعر عبدالله ابن الزبعري، الذي ندّ عن جامعة الدكتور الجبوري، ثم وصل إلى الخاتمة فأجمل فيها ما استنبطه من خلال البحث.

وبعد: فقد بذل الأستاذ: محمد على كاتبي ـ كما يبدو في دراسته هذه ـ فوق الوسع حتي ظهرت هذه الصورة، لتأخذ مكانها بين الدراسات الأدبية الأصلية الجادة المفيدة.

وقد تجلت شخصية الباحث واضحة من خلال مناقشة الروايات مناقشة علمية، وقبول بعضها ورد بعضها الآخر، وكشفت عن ثقافة تراثية واسعة وجهود علمية أضافت إلى مكتبة الأدب الإسلامي عملا قيما جديرا بالثناء.

■■■